أسرار الحياة اليهودية

إلى قيام دولة إسرائيل فى مايو ١٩٤٨ كان العرب هم مشكلة اليهود الأولى وعقدتهم النفسية الكبرى ؛ ذلك لأنهم ـ لسوء الحظ ـ أبناء عم : اليهود أولاد إسحاق ، والعرب أولاد إسماعيل .

واليهود يزعمون أن إسحاق هو الابن الأفضل لإبراهيم عليه السلام ؛ لأنه ابن سارة الحرة ، أما إسماعيل فهو ابن الجارية المصرية هاجر . وبعد ميلاد إسماعيل طلق إبراهيم جاريته هاجر بتحريض من سارة ، ومضى بها وابنها إسماعيل إلى الصحراء، وخلَّفهما هناك ؛ ليعيشا فى شظف وجهد وإملاق !

وكان فى تقدير العزيز الحكيم أن يعيش إسماعيل مع أمه فى الصحراء حياة أمن و سلام ، وأن يعود إبراهيم إلى أرض الحجاز ؛ لكى يرفع قواعد البيت مع ابنه إسماعيل ؛ ليكون مثابة للناس وأمناً ، وأن يكون من نسل إبراهيم العرب ، وأن

يكرم له العرب بمحمد ﷺ والإسلام ، وأن يعم الإسلام الدنيا ، ويكرم الله العرب بهذا الدين ..

ورفض اليهود الإيمان بمحمد ، كما رفضوا من قبل الإيمان بعيسى !

وامتلأت قلوب اليهود حقداً على العرب أبناء إسماعيل ؛ لما أكرمهم الله به من الإسلام والعزة والقوة .

وطوال العصور الوسطى ـ وبرغم إكرام العرب لليهود ـ كان أمل اليهود الأكبر خراب ديار العرب أجمعين !

وعندما دار الزمان وأنشب اليهود مخالبهم فى فلسطين ظنوا أن فرصتهم قد حانت لإدراك ثأرهم من العرب .

ومن ذلك الحين أصبح اليهود مشكلة العرب ؛ لأن اليهود استقروا فى قلب البلاد العربية ـ فلسطين ـ فى فترة من فترات الضعف والتفرق والخضوع للمستعمر الأجنبى الذى كان عوناً لليهود عليهم !

وعندما استقل العرب وقامت دولهم ، واشتد ساعدهم ، كان اليهود قد ابتلعوا معظم فلسطين ، وهددوا كل بلد عربى ، بل كل

مواطن عربى فى داره ، وأظهروا أنفسهم مع ذلك أنهم مظلومون مهددون ضعفاء فى حاجة إلى عطف الناس ! وانخدع الناس بذلك ، وشاركوا اليهود فى البكاء عند حائط المبكى ، وأغدقوا عليهم المال والسلاح .

وبالدموع والمال والسلاح أحس اليهود أنهم لا يُغلبون ! وفى ثلاث حروب متوالية ظنوا أن حلم حكماء بنى إسرائيل فى سيادة الدنيا على وشك أن يتحول إلى حقيقة !

ولكن حرب أكتوبر ١٩٧٣ قلبت الميزان !

انهار سد يأجوج ومأجوج الذى أقاموه حول أنفسهم ؛ وتحطمت أسطورة جيشهم الذى لا يغلب ، وأسرع قائدهم العبقرى يستنجد الدنيا وإلا ضاعت الجنة التى أنشأها اليهود على أرض فلسطين !

وبدأ العرب قصتهم مع النصر ، ودخلت المعركة بين العرب واليهود فى طور جديد .

طور العربى الذى يتكلم من موقع القوة ، ويتكلم فيصغى له الناس ، ثم يمضى فى بسالة الواثق من حقه إلى قلب قلعة

العدو الإسرائيلى ، ويقول بصوت يسمعه العالم كله : إن كنتم تريدون السلام فهذا هو السلام ! هاتوا أرضنا ، واعترفوا بحق هذا الشعب الفلسطينى الذى شردتموه ، وعيشوا بعد ذلك فى سلام !

ورفضوا ؛ لأنهم لا يريدون أن يعيشوا فى سلام ! وهل فى الدنيا إنسان لا يريد أن يعيش فى سلام ؟

أجل : اليهود فى فلسطين !

لماذا ؟

لكى نجيب عن هذا السؤال ينبغى أن نفهم اليهود .

لكى نحل القضية الفلسطينية وإلى أين تمضى قضيتنا مع إسرائيل ينبغى أن نفهم اليهود ؟

وليس ذلك بالمطلب الهيِّن ؛ فإن الدنيا كلها لا تفهم اليهود ! والكثيرون جدّا من اليهود لا يفهمون اليهود !

وستكون نقطة البداية فى محاولتنا فهم اليهود كتاباً فريدًا فى بابه عنهم ، ألفه من نحو عشر سنوات الكاتب الفرنسى المعروف Roger Peyrifitte « روجيه بيريفيت » وعنوانه : «اليهود » وقد طبع هذا الكتاب بعد ذلك مرات !

obeikandl.com

والمؤلف ليس عدوًا لليهود ، بل هو أقرب إلى أن يكون صديقاً لهم ، وليس في الغرب كله كاتب له سوق وقُرَّاء يجرؤ على أن يخاصم اليهود ! إنهم يستطيعون تحطيمه أيًا كان مركزه ؛ لأنهم أقوياء جداً في مجالات النشر والإعلام ! وقبل نصر أكتوبر ١٩٧٣ وقبل مبادرة الرئيس السادات في ١٩ و ٢٠ من نوفمبر ١٩٧٧ لم تكن أي صحيفة أو جريدة في الغرب تجرؤ على أن تذكر العرب بخير ، وكلمة « فلسطين » كانت محرمة في قاموس النشر في الغرب ؛ لأن هذا اللفظ يؤلم اليهود !

لهذا كان نشر بيريفيت لكتابه عن اليهود سنة ١٩٦٨ جرأة أكبر ؛ لأنه يكشف كثيراً من الحقائق التي كان اليهود يحرصون أشد الحرص على ألا يعرفها أحد عنهم ، وفي هذه الحقائق الكثير من مثالب اليهود أو نقائصهم ، ولكن بيريفيت يعرف كيف يقول ما يراه حقًا في صورة لابد أن يحترمها الآخرون ؛ لأنه أولاً عفيف اللسان ، قدير في القول ، ثم إنه آخراً لا يقول شيئاً إلا أيده بالدليل القاطع والوثيقة الصادقة ، فلا مناص لسامعه من الاستماع ولو كرهت النفوس ، وما أبغض الحق المؤيد بالدليل إلى المنكر الجاحد الموتور !

سيكون هذا الكتاب مدخلنا ودليلنا ، ولكنه لن يكون معتمدنا الوحيد ؛ لأنه إذا كانت لديه قصة يحكيها عن اليهود فنحن ـ العرب ـ لنا قصة أخرى لا مفر من الاستعانة بها لمن يريد أن يفهم اليهود ..

وقصتنا لا تقل صدقاً وعمقاً عن قصته ، فهي وليدة تجربة ومعاناة وآلام ووقائع سجلها التاريخ !

سنسير معه حيناً ، ونسير في طريقنا حيناً آخر ، وسنجمع الأدلة والشواهد ؛ لكي نصل بها إلى الحكمة التي هي ضالة المؤمن ..

والحكمة تقضي علينا اليوم بأن نفهم العدو الذي نواجهه ؛ فإن الكراهة والبغضاء لا تعينان على تعرف الحق ، وإن كنا معذورين إذا مال بعض إلى الكراهة والبغضاء ؛ فإن الذي لقيناه من هؤلاء القوم كثير لا تكاد تحمله النفوس !

وما رأيك في ناس يزعمون أن الألمان النازيين قتلوا منهم ستة ملايين فيما يقولون ، ثم يريدون منا نحن العرب أن ندفع العوض ، ونتحمل الديات ، وما نحن بألمان ولا نازيين ؟ !

ومـا رأيك في قـوم يريدون منا أن ندفع ونكون سـعـداء بأن ندفع ، وأن يُعتـدى علينا ونكون سعـداء بالعدوان ، ونُهـان فلا يكون ردنا إلا تحية وسلاماً !

إما هذا أو نحن قوم جاحدون مكابرون !

والقارئ يعرف كل هذا الكلام .

فَلْنَدَعْه إلى حـين ونمض ؛ لنبدأ الدراسة من كتـاب (اليهود) لروجيه بيريفيت .

المؤلف : دبلوماسي ، وأديب ، ومثير فتن فكرية :

روجيه بيريفيت Roger Peyrifitte من أولئك الكـتـاب الذين تختلف فيهم الآراء اختلافاً واسعاً ، وتتضارب حولهم العواطف ما بين مؤيدين معجبين ، ومنكرين مسرفين في السخط ، ولكن المؤيدين والمنكرين ـ جميعاً ـ يحرصون على قراءة كل ما يكتب؛ لأن كـلامـه يشتـمل على حـقـائق مـثـيرة ، وإشـارات لاذعـة ، ومفاجآت تـثير العجب ، وما إلى ذلك من حوافـز التشويق التي تجتذب العدو والصديق على حد السواء !

ذلك أن كتب بيريفيت تقوم دائماً على دراسات طويلة وبحوث مستقصية للموضوع الذى يكتب فيه ، وهو لا يكتب أبداً اعتماداً على افتراضات وتقديرات شخصية ، بل يبحث طويلاً جداً ، ويطيل القراءة ، ويجد طريقه دائماً إلى الوثائق وخزائن المعلومات ؛ لأنه دخل عالم الأدب والكتابة من باب عال رفيع !

فقد كان دبلوماسيّا فرنسيّا وصل إلى درجة السفارة ، والفرنسيون لا يرفعون من رجالهم إلى درجات السفراء إلا خيرتهم تجربة وعلماً وخبرة ، وهم يؤمنون بأن السفير يولد ولا يصنع . أى أنهم يرون أنه ليس من حق كل من وصل إلى درجة مستشار سفارة أن يخطو إلى درجة الوزير المفوض فالسفير ؛ لأن السلك الدبلوماسى عندهم يصل إلى المستشار ، أما ما يلى ذلك من المناصب فلا يعين فيه إلا الموهوب القادر على تمثيل فرنسا تمثيلاً مشرفاً ، ورعاية مصالحها ومصالح أبنائها المنبثين فى كل مكان !

ولهذا فإنك يندر أن تجد سفيراً فرنسيّا ليس عالماً أو أديباً كبيراً ، أو قانونيّا ضليعاً ، أو أستاذاً ، أو موسيقيّا ذا قدر عظيم .

هذا كله نجد دليلاً ناطقاً عليه فى سيرة بيريفيت .

كان دبلوماسيّا دهراً من عمره ليس بالقصير ، ولكنه كان عالماً بَحّاثَةً فى كل يوم من أيام عمله الدبلوماسى : ما شغل منصباً فى إحدى السفارات الفرنسية فى أية ناحية إلا أقبل يجمع المعلومات عنها بصبر يعدل صبر المتخصصين ، فإذا غادر البلد كان معه حصاد لا يلبث أن ينشره فى كتاب .

ثم شبع من السلك السياسى ، فتركه وانصرف إلى التأليف ، وذاع أمره بسبب غزارة المعلومات فى كتبه ، وبسبب أسلوبه اللاذع وصراحته فى الكلام ، وإن الإنسان ليدهش وهو يقرأ كتابه الأشهر «مفاتيح القديس بطرس» (Les Clefs de Saint Pierre) كيف أتيح له أن يجمع هذا الحشد الهائل من المعلومات الكبيرة والصغيرة عن الفاتيكان ؟ وكيف وجد فى نفسه الجرأة على نشرها على الناس غير هَيَّاب من الكنيسة ومن لها من أنصار ؟

وكتاباه المشهوران « السفارات » و « نهاية السفارات » يعدان من أطرف ما يقرأ الناس عن السلك السياسى وأصحابه ، وما فى حياتهم من جد كثير وهزل أكثر ، وأغرب ما تحس به وأنت تقرأ هذين الكتابين أنك لا تعرف أبداً : أفى جد أنت أم فى هزل ؟

وطريقة بيريفيت هى أن يختار لكتبه موضوعات هى فى

ذاتها مشكلات يختلف الناس فى أمرها مثل : موضوع الكنيسة ودولتها ونظامها ، أو موضوع السلك السياسى ، أو شواذ الجنس ، أو جماعة فرسان مالطة التى وهب لها أحد البابوات جزيرة مالطة ، فظلت تحكمها حكماً سيئاً حتى قضى عليها نابليون ؟

وهو يجمع لكتبه معلومات كثيرة جداً ، ومعلومات تتردد بين الوثائق الخطيرة والأسرار الضخمة ، وبين المباذل والعبارات العابرة والحكايات الواقعية القصيرة التى تسمى «بالأنيكدوت » وخير ترجمة عربية لها هى « النكات » وهى غير الفكاهات ، ونحن نسىء فهم النكتة عندما نسميها فكاهة ، وهى فى حقيقتها الحادثة القصيرة الطريفة ذات المغزى .

ثم يصوغ ذلك كله فى قالب قصصى غير معقد أو مُتَكَلَّف ، وهذا القالب القصصى عنده أشبه بحامل الكتب أو إطار الصورة: فهناك شخوص أمامك ، ولكن وظيفتهم فى القصة هى أن يتكلموا ؛ لِيَقُصُّوا عليك الكثير جدّا مما يريد المؤلف أن يقوله !

ومن هنا فهو يسمى معظم كتبه روايات ، ولكنها ـ فى الواقع ـ ليست حكايات ، بل هى أبحاث ودراسات !

###